روائع لغوية
(٢)

كيف نقرأ النص التراثي؟
وبيان أثر العروض في ضبطه وتحقيقه

الدكتور
محمد حماسة عبد اللطيف

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

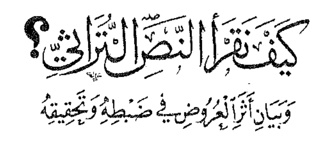
هذا الكتاب

هذه صفحات يسيرة تتناول موضوعًا كبير القَدْر عظيم الخَطَر، هو قراءة النَّص التُّراثي.

وليس المقصود - بطبيعة بالقراءة تصفُّح المكتوب والقُدْرة على النُّطق به، ولكن المقصود بالقراءة تجاوز هذا - على أهميته - إلى القُدرة على الفَهم الصَّحيح، والدُّربة على التذوق السليم.

وهي دعوة إلى إحسان الظَّن أوَّلا بما لدينا، وإتقان قراءته ثانيًا. ولأنها دعوة فهي تكتفي بالإشارة وضَرْب المثل.




كيف نقرأ النص التراثي؟
وبيان أثر العروض في ضبطه وتحقيقه



روائع لغوية
(٢)

كيف نقرأ النص التراثي؟

وبيان أثر العروض في ضبطه وتحقيقه

الدكتور
محمد حماسة عبد اللطيف

مكتبة الإمام البخاري



١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٧٢١ / ٢٠٠٩م

ISBN
978 - 977 - 481 - 029 - 9

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عبد اللطيف ، محمد حماسة .
كيف نقرأ النّص التراثي ؟ وبيان أثر العروض في ضبطه وتحقيقه / محمد حماسة عبد اللطيف . - ط١ . - القاهرة : مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩ .
٤٨ ص ؛ ٢٠ سم . - (روائع لغوية ؛ ٢)
تدمك ٢ ٠٢٩ ٤٨١ ٩٧٧ ٩٨٧
١- التراث العربي
أ - العنوان

مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

القاهرة : ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - ت ٢٥١٤٤٠٧٣
جوال ٠١٢/٣٦٧٦٧٩٧ - ٠١٠/٦١٨٦١١٤

المحتويات

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن
كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟
قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

[التوبة : ١٢٢]

مُقَدِّمَة

هذه صفحات يسيرة تتناول موضوعًا كبير القَدْر عظيم الخَطَر ، هو قراءة النَّص التُّراثي . وليس المقصود بالقراءة تصفُّح المكتوب والقُدْرة على النُّطق به ، ولكن المقصود بالقراءة تجاوز هذا - على أهميته - إلى القُدرة على الفَهْم الصَّحيح ، والدُّربة على التذوق السليم ، وخاصة ونحن في زمن قلَّت فيه القراءة بمعنييها السابقين وزادت طائفة من بني جلدتنا - أو هكذا يدعون - فَدَعت إلى القطيعة مع التُّراث ، والتَّنكُّر له ، وتنكب طريقه ، واتخذت في دعوتها هذه أساليب شتى ، وَطَرائق قِددًا . وظاهر هذه الدعوة – على غير قَصْد – ضَعْف مُستوى التعليم عامة ، والتعليم المتخصص المرجوّ لهذه المُهِمَّة ، المأمول للنهوض بها خاصة .

إنَّ الحاضر لا يمكن أن ينهض إلاَّ على دعائم من الماضي . ونحن لدينا ماضٍ مُضيء يَحْسدنا عليه شانئونا ، ويؤلبوننا عليه ، مع أن الأُمم التي ليس لها تُراث تحاول أن

تَدَّعى لنفسها تُراثًا وتجهد في هذا الادِّعاء ، ونحن لا نلتفت إلى ما لدينا بل نُهْمِله ، وندعو إلى القطيعة معه ، ونُرَغِّب عنه ، ونتطلَّع إلى ما عند الآخرين ! .

هذه الصَّفحات دعوة إلى إحسان الظَّن أوَّلا بما لدينا ، وإتقان قراءته ثانيًا . ولأنها دعوة فهي تكتفي بالإشارة وضَرْب المثل . ولعلّ الله يقيّض من أبناء هذه الأمة من ينهضون بأمر نصوص تُراثها ، يَسْتخرجون دُرَره المضيئة الكاشفة ، ويجلون عنها غبار الزَّمن ، بالفهم الناضج والنظر الحصيف ، والعقل الرشيد حتى يُسْهموا في إضاءة حاضرهم استشرافًا لغد مأمول .

والله من وراء القصد .

محمد حماسة عبد اللطيف

القاهرة في : ١٦ شوال ١٤٣٠هـ

الموافق ٥ أكتوبر ٢٠٠٩م

المبحث الأول

كيف نقرأ النص التراثي ؟

تمهيد

دَرْسُنا للغة العربية لابدّ متصل بالنصوص القديمة مطبوعها ومخطوطها ، ونحن في عملنا مطالبون بفهم هذه النصوص ، وفقه ما فيها ، والوقوف على دلالتها ، ونقدها نقدًا خارجيًا ، ونقدًا داخليًّا ؛ لأننا نحن - المتخصصين - نعدُّ المسئولين عن هذا الفَهْم لهذه النُّصوص ، المَنُوطَ بنا تقديمُها لغيرنا ، قبل أن نكون الأمناءَ عليها ، المطلوبَ منَّا حفظُها ورعايتُها . وتراثنا متصلٌ في جوانب منه .

والنَّصُ القديم متنوّع :

- فقد يكون شعرًا .
- وقد يكون نثرًا .
- وقد يكون تفسيرًا .
- وقد يكون شرحًا لأحاديث نبوية .
- وقد يكون نصًّا عِلميًّا في مجال معين من مجالات العلوم المختلفة .

- وقد يكون نصًا نحويًا .

والشعر ـ بطبيعة الحال ـ أسبق هذه النصوص جميعًا في البُعد التاريخي . ونصوص النحو أسبق النصوص العلمية في التراث العربي .

* وقضية الانتحال في الشعر العربي القديم مما له صلة وثيقة بأسلوب قراءة النص القديم ، ونقده .

* وكذلك نسبة بعض الكتب إلى غير أصحابها مما له صلة بأسلوب قراءة النص القديم ونقده .

* وفهمُ بعض النصوص القديمة على غير وجهها مما له صلة بقراءة النص القديم ونقده ، وبقاء بعض النصوص القديمة جامدة ثابتة دون تطوير أو استثمار مما له صلة بقراءة النص القديم ونقده .

والغرض من القراءة أيضًا متنوع ، وكل نوع له أساليبه الخاصة به ، التي لا تتعارض بالضرورة مع الأنواع الأخرى .

* **فقراءة النصّ المخطوط بقصد تحقيقه** لها مقوماتها الخاصة التي تهدف إلى جلاء النص وتوضيحه وتقديمه

للقارئ ، سليمًا صحيحًا في أقرب صورة ممكنة لما أراده مؤلفه . **وهنا يكون المعول على** :

- الخبرة بالخطوط مشرقيها ومغربيّها .
- وأساليب النسّاخ وتوثيق النصّ .
- وطريقة كتابته وعلامات الترقيم فيه .
- فضلاً عن الخبرة بالتصحيف والتحريف .
- وفهم النصّ ومجاله والثقافة المحيطة به والقدرة على تذوقه .

وغير ذلك مما يقيم النص على طريقه الصحيح المرجوّ له . ومهما يكن من أمر ، فهذا باب مستقل بذاته يُراد به بعض المتخصصين ، ويُعْنَوْن به .

* **وقراءة النص من أجل البحث والدرس** له أيضًا مواصفاته الخاصة به ، فقد يكون من أجل التدليل على قضية ما في التراث القديم ، وقد يكون لفهمه وتذوقه في ذاته ابتغاء شرحه وبيان ما يحتوي عليه ، وقد يكون لبناء موضوع يضمه ويضم غيره من النصوص ... إلخ .

ومهما تنوع الهدف منه ، فإن منهج الوصول إليه واحد لابد أن يقوم على أسس صحيحة سليمة حتى يُسلم إلى نتائج صحيحة سليمة مستقيمة ؛ لأن اعوجاج النتائج وعدم استقامتها قائم في الأصل على فهم سقيم وحس مدخول :

وكم من عائب قولاً صحيحًا
وآفته من الفهمِ السقيمِ

ولا يليق في البحث العلمي على كل حال أن تبنى النتائج على سُوء قصد أو سُوء فهم ؛ لأن سوء القصد تدليس ، وسوء الفهم نقصان في الأداة .

۞ ۞ ۞ ۞

الأُسُس التي تستند إليها قراءة النص القديم وفهمُه

وسوف أُجْمِل أولاً الأُسُس التي ينبغي أن تستند إليها قراءة النص القديم وفهمُه ، وهي :

١ـ توثيق النّص ، وتحقيق نسبته إلى قائله ، هل قاله صاحبه مباشرة ، فجاء في بعض كتبه ، أو نقله عنه أحد تلاميذه .

٢ـ وضع النص في سياقه العام الذي يرد فيه ، ومدى مناسبة النص لهذا السياق العام ، فمن المعروف أنَّ السياق يشكل جزءًا مهمًا من دلالة النص ، ويوجهه الوجهة الصحيحة .

٣ـ وضع النص في سياقه الخاص ، كأن ينظر إلى الفصل الخاص الوارد فيه ، فإذا نظرنا إلى الكتاب على أنه يمثل السياق العام ، فإنّ الفصل بوضعه في داخل الكتاب يمثل السياق الخاص .

٤ـ النظر في النص نفسه من داخله ، وتبين مدى

مواءمته للسياق الخاص والعام ، والنظر في الأفكار التي يحتوي عليها، وترتب هذه الأفكار .

٥ـ عرض هذه الأفكار الواردة في النص على أفكار صاحبه وآرائه في الكتاب الواردة فيه وفي غيره .

٦ـ موقف معاصري هذا النص من أفكاره ، وموقف القريبين منه المهتمين بمجاله .

هذه خطوط عامّة لابد من مراعاتها في النظر إلى نصّ علميّ في مجال معين .

وليس هناك ترتّب معين لهذه الخطوات ، فالبدء بأيّها يؤدي الغرض منها . المهمّ أنْ تُستوفَى هذه الجوانب التي تأخذ بتلابيب النص وتجره إلى الفهم الصحيح ، لا أن تؤخذ النصوص من أطرافها ، دون تمحيص ، أو تفهم بفهم سقيم ناقص العدة ، أو تُقسر على فهم نريدها نحن عليه ، وهي منه براء .

وكم من الأخطاءِ ترتكب في هذا المجال ، كأن يُبتسَر النص بحذف بعضه أو بتره خدمة لغرض لا يؤدي إليه

النص ، أو يَلْوي عنقه ليًا ليلتفت إلى ما يريده الباحث لا ما يريده النص ، أو يُفهم فهمًا خاطئًا بسبب عدم فهم سياقه الخاص والعام ، أو عدم فهم أفكاره الخاصة ، أو عدم النظر إلى مدى مواءمة هذه الأفكار مع آراء أصحابها الأخرى . إلى غير ذلك من دواعي النظر الخاطئ والفهم المنقوص .

❖ ❖ ❖ ❖

نصٌّ عمليٌّ للتطبيق من كتاب سيبويه

وسوف أختار للتطبيق نصًّا من النصوص القديمة التي فُهِمَت فهمًا خاطئًا فأدّت إلى نسبة آراء إلى بعض العلماء لم يقولوا بها ، ولم تدر لهم بخلَد ، أو أهملت إهمالاً معيبًا فلم تفهم آراء أصحابها حق الفهم ، ولم تستثمر في تطوير الفكر الخاص في هذا المجال المعين .

فقد وَرَدَ نصٌّ في كتاب سيبويه منسوبًا إلى الخليل بن أحمد ، يقول سيبويه : « وزعم الخليل أنّ الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهنّ يلحق الحرف ليوصل إلى التكلم به ، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه ، والفتحة من الألف ، والكسرة من الياء والضمة من الواو ، فكلّ واحدة شيء مما ذكرت لك »[١] .

هناك باحثون نسبوا إلى الخليل بن أحمد أنه يقول بأن العلامات الإعرابية ليست دوال على معانٍ ، وأنها تلحق

(١) « كتاب سيبويه » ٢ / ٣١٥ (طبعة بولاق) . و ٤/ ٢٤١ ، ٢٤٢ (طبعة الخانجي تحقيق عبد السلام هارون)

الكلام ليوصل إلى التكلم به ، أي أنّ هذا الرأي حسب فهمهم يشبه المقولة المنسوبة إلى محمد بن المستنير المعروف بقطرب (ت ٢٠٦هـ) ونقلها عنه الزجاجي في كتابه الإيضاح إذ يقول : « لم يعرب الكلام للدلالة على المعاني والفرق بين بعضها وبعض » .

ومن الذين فَهِمُوا نَصّ الخليل على هذا الوجه عددٌ من المحدثين :

- منهم د. إبراهيم أنيس[١] .
- و د . إبراهيم السامرائي[٢] .
- ومحمد الأنطاكي[٣] .
- د . عبد الرحمن السيد[٤] .
- أحمد عبد العظيم[٥]

(١) « من أسرار اللغة ٢٠٨ » .

(٢) « دراسات في اللغة » (٩٩) ، و « الفعل زمانه وأبنيته » (٢٣٣) ، و « التطور اللغوي التاريخي » (٤٨) .

(٣) « الوجيز في فقه اللغة » (٢٩٦)

(٤) « مدرسة البصرة النحوية » (٣٠٦) .

(٥) الوحدات الصرفية ودورها في بناء الكلمة : ١٢٣ (رسالة ماجستير بكلية دار العلوم ١٩٧٠ م) .

وهذا النص أورده سيبويه في «باب حروف البدل في غير أن تدغم حرفًا في حرف وترفع لسانك من موضع واحد» وتناول فيه إبدال الهمزة من الواو والياء، وإبدال الواو من الياء، والياء من الواو حيث وقعتا من الكلمة، وليس مقام الحديث عن الإعراب، ولا عن دلالة حركات الإعراب.

وهذه المسألة قد تتعلق بتنظيم الكتاب نفسه، وترتيب نصوصه وأفكاره وبخاصة إذا عرفنا أن طريقة سيبويه في كتابه لا تسمح بإقحام نصوص غريبة عن الفكرة التي يتناولها، إذ يبدأ من عنوان الباب بعبارات متصلة لا تتيح الفرصة لالتقاط الأنفاس.

فإذا كانت نسبة هذا النص صحيحة إلى سيبويه وكانت مؤدية للمعنى الذي فهمه بها بعض الباحثين المحدثين فلعل لها موضعًا آخر في الكتاب غير هذا الموضع، إلا إن كان يعني أن الضمة – بما أنها من الواو – والكسرة – بما أنها من الياء – والفتحة – بما أنها من الألف – قد تبدل كل منها من الأخرى كما تبدل ما هن شيء منها، وهذا ما لم يوضحه سيبويه ولم

يشر إليه، وعلى افتراض أنه يرمي إلى ذلك، فإن هذا البدل لا يأتي خبط عشواء، ولكنه يجيء وفقًا لنظام خاص، وإذا وصلنا إلى هذا النظام الخاص فإنه لابد أن يكون نظام تركيب الجملة الذي يحدد إحدى هذه العلامات للدلالة على الوظيفة النحوية أو المعنى النحوي المطلوب، وهنا لا يكون الخليل داعيًا إلى إنكار الإعراب.

بعد هذا ننظر في النص نفسه، لنحاول أن نتطعمه ونفهمه، ونقف على ما فيه من أفكار، وهنا نجد أن النص يشتمل على أفكار ثلاثة هي:

١- الفتحة والكسرة والضمة زوائد والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه.

٢- الفتحة والكسرة والضمة يلحقن «الحرف» ليوصل إلى التكلم به».

٣- الفتحة من الألف والضمة من الواو والكسرة من الياء.

أما أن كل حركة من هذه الحركات الثلاث جزء من لينها، فهذا جانب صوتي مسلم به، وهو يتعلق بتحديد ماهية هذه

الحركات لا دلالتها في الجملة ، وللقدماء في ذلك نصوص وملاحظات دقيقة ليس هنا مجال مناقشتها .

ولعل الذي أوقع أولئك الدارسين في الظن بأن الخليل ابن أحمد يقول بأن علامات الإعراب لا دلالة لها في الكلام غير أنها تزاد لوصل الكلمات بعضها ببعض هو العبارة القائلة : « **وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به ، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه** » . ولعلهم فهموا أن « الحرف » يقصد به هنا « الكلمة » وأن « البناء » يقصد به ما يقابل الإعراب . **ولكن وضع النص في سياقه** يكشف أن الحديث ليس عن الإعراب والبناء ، وهذا يؤكد أن المقصود بالحرف هو الحرف الهجائي .

وقوله : « فالفتحة من الألف ... الخ ، يعني أن الفتحة تزاد على الحرف ومخرجها من مخرج الألف ، وكذلك الكسرة من مخرج الياء ، والضمة من مخرج الواو[1] وهذه العبارة المأخوذة عن السيرافي تكشف أن الحرف

(١) « من تقريرات السيرافي بهامش الكتاب ٢ / ٣١٥ .

هو الحرف الهجائي وليس الكلمة أو حرف الإعراب ، وأما لفظ « البناء » فالمقصود به الحرف في حال عدم الحركة وهو ما يساوي الـ Consonant ، وبذلك لا يكون هذا النص بحال متناولاً للإعراب أو البناء ، ولا يظنَّن ظان أن لفظ « التكلم » هنا يقصد به « الكلام » الاصطلاحي بل المراد به « النطق » وسيبويه يستخدم هذا اللفظ للدلالة على النطق ، يقول : « باب ما يلحق الكلمة إذا اختلت حتى تصير حرفًا ، فلا يستطاع أن يتكلم بها في الوقف فيعتمد بذلك اللحق في الوقف »[1] .

٣- وهناك جانب ثالث لابد منه لتحديد المقصود بعبارة الخليل ، **وهو عرض هذه العبارة على أقوال الخليل وآرائه ومدى تناسقها مع فكره النحوي** ، على فرض أنها تعني ما أراده لها أولئك الدارسون .

وسوف يكون كتاب سيبويه مرجعنا في تحقيق هذا الجانب ؛ لأنه هو الذي نقل عنه المقولة السابقة ، ولأنه

(١) انظر : سيبويه ٢ / ٢٧١ ، وانظر : عنوان الباب التالي له مباشرة .

نقل عنه كثيرًا في كتابه إذ بلغ عدد مرات النقل عنه (٥٢٢) مرة حسب إحصاء الأستاذ علي النجدي ناصف وهو عدد يفوق عدد مرات النقل عن كل من نقل عنهم سيبويه غير الخليل ، إذ يبلغ مجموع مرات النقل عنهم (٣٣٦) مرة[1] ، ومن هنا نجد نقول سيبويه عن الخليل كافية في تصوير فكره النحوي .

وإننا لنلحظ في النصوص المنقولة عن الخليل في الكتاب ، أنه كثيرًا ما يربط بين الحركة الإعرابية ومعنى معين ، ومن ذلك ما نقله سيبويه :

١ـ في باب ما جعل من الأسماء مصدرًا كالمضاف ، وذلك قولك : مررت به وحده ، ومررت بهم وحدهم ، ومررت برجل وحده ، ومثل ذلك في لغة الحجاز : مررت بهم ثلاثتَهم وأربعتَهم وكذلك إلى العشرة .

وزعم الخليل أنه إذا نصب ثلاثتَهم فكأن يقول : مررت بهؤلاء فقط ، ولم أجاوز هؤلاء ، كما أنه إذا قال وحدَه ،

(١) « انظر : « سيبويه إمام النحاة » : ٩٨ .

فإنما يريد مررت به فقط ولم أجاوزه ، وأما بنو تميم فيُجْرونه على الاسم الأول إن كان جرًا فجرًا ، وإن كان نَصْبًا فنصبًا ، وإن كان رفعًا فرفعًا .

وزعم الخليل أن الذين يجرون كأنهم يريدون أن يُعمِلوا كقولك مررت بهم كلِّهم أي لم أدع منهم أحدًا .

وزعم الخليل حيث مثل نصب وحدَه وخمستَهم أنه كقولك : أفردتهم إفرادًا فهذا تمثيل ولكنه لم يستعمل في الكلام »[1] .

فالنصب في هذه الأمثلة يجعل للكلمة وظيفة غيرها تابعة للاسم قبلها ، ويرتبط بهذه الوظيفة النحوية معنى تفيده في جملتها أشار إليه الخليل وربط العلامة به والدلالة عليه .

٢ـ عندما تجري العلامة الإعرابية على غير وجهها يتأولها الخليل ، ويحاول أن يجد لها تعليلاً ، ففي مسألة الجر على الجوار يحاول الخليل أن يفسرها تفسيرًا يحافظ على العلامة الإعرابية .

(١) « سيبويه » ١ / ١٨٧ ، ١٨٨ ،

على حين نجد سيبويه لا يرى رأيه في هذه المسألة يقول سيبويه : « ومما جرى نعتًا على غير وجه الكلام : هذا جحرُ ضبٍّ خربٍ ، فالوجه الرفع وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم وهو القياس ؛ لأن الخرب نعت الجحر ، والجحر رفع ، ولكن بعض العرب يجره ، وليس بنعت للضب ، ولكنه نعت للذي أضيف إلى الضبِّ ، فجروه لأنه نكرة كالضب ، ولأنه في موضع يقع فيه نعت الضب ، ولأنه صار هو والضب بمنزلة اسم واحد ، ألا ترى أنك تقول : هذا حبُّ رمانٍ ، فإذا كان لك قلت : هذا حبُّ رمّاني . ومثل ذلك هذه ثلاثةُ أثوابِك ، فكذلك يقع على جحر ضب ما يقع على حب رمان ، تقول : هذا جحر ضبي ، وليس لك الضب ، إنما لك جحر ضب ، فلم يمنعك ذلك من أن قلت : جحر ضبي ، والجحر والضب بمنزلة اسم مفرد ، فانجر الخراب على الضب ، كما أضفت الجحر إليك مع إضافة الضب ، مع أنهم أتبعوا الجر الجر ، وكما أتبعوا الكسر الكسر نحو قولهم : بهم

وبدارِهم وما أشبه هذا ، وكلا التفسيرين تفسير الخليل ، وكان كل واحد عنده وجهًا من التفسير » [١] .

هنا نجد الخليل يقدم تفسيرًا للجر على الإتباع في « هذا جحر ضب خرب » .

فمع أن هذا لغة لبعض العرب كما ذكر سيبويه ، إلا أن الخليل لم يكتف بأن يقول : إنهم أتبعوا الجر الجر كما أتبعوا الكسر الكسر في مثل بِهِم وبِدارِهِم وغيرها ، وإنما قدم تفسيرًا مطولاً يحاول فيه أن يلتمس وجهًا لهذا التعبير الذي جرى على غير وجه الكلام .

فالتشابه في التنكير ووجود الكلمة في موضع يقع فيه نعت الضب ، وشدة لصوق المضاف بالمضاف إليه حتى كأنهما اسم واحد هذه كلها ممهدات للغلط في هذا المجال ، فالخليل يغلط العرب القائلين بهذا .

قال الخليل : « لا يقولون إلا هذان جحرا ضب خربان من قِبَل أن الضب واحد والجحر جحران ، وإنما يغلطون إذا كان

---

(١) « الكتاب » ١ / ٢١٧ .

الآخر بعدَّة الأول ، وكان مذكرًا مثله أو مؤنثًا ، وقال : هذه جِحَرَةُ ضبابٍ خربة ؛ لأن الضباب مؤنثة ، ولأن الجِحَرة مؤنثة والعدة واحدة فغلطوا فهذا قول الخليل »(١) .

فلو كان الخليل يقول بأن العلامات الإعرابية لا دور لها في الجملة ولا دلالة ؛ لما غلط العرب ولوجد في مثل هذه التراكيب سندًا لدعواه ، ولكنه يجري في هذا على سنن جمهور النحاة جميعًا ، ولهذا نجد التفسير الثاني كأنه اعتذار عن العرب الذين ينطقون بهذا التركيب يمهد لهم به مخالفة سنن الإعراب من أجل « المناسبة » .

وعند تثنية المضاف وإفراد المضاف إليه يرى الخليل أن النعت لا يأتي إلّا مثنى « من قبل أن الضب واحد والجحر جحران » . ويخالفه سيبويه في هذه المسألة معتمدًا على سياق الجملة في بيان صاحب النعت .

يقول سيبويه : « ولا نرى هذا والأول إلا سواء لأنه إذا قال : جحر ضب متهدم ففيه من البيان أنه ليس بالضب

(١) « الكتاب » ١ / ٢١٧ .

مثل ما في التثنية من البيان أنه ليس بالضب »(١) .

يقول الأعلم الشنتمري : « كان الخليل رحمه الله لا يجيز مثل هذا حتى يكون المتجاوران مستويين في التعريف والتنكير والتأنيث والتذكير والإفراد والجمع كقولهم : هذا جحر ضب خرب ، وجحرا ضبين خربين ، وجحرة ضباب خربة ، وسيبويه يجيز الحمل على الجوار ، وإن اختلف المتجاوران إذا لم يشكل المعنى كقولك : هذا جحرا ضب خربين ، وهذا جحر ضبين خرب »(٢) .

وقد احتج سيبويه لرأيه هذان بقول العجاج :

كأنّ غزلَ العنكبوت المُرْمِلِ

قال : « والغزل مذكر والعنكبوت أنثي »(٣) واحتج ببيت العجاج هذا ؛ لأنه حمل المرمل وهو مذكر على العنكبوت وهي مؤنثة ، والمرمل من وصف الغزل في

(١) « السابق نفسه .

(٢) « تحصيل عين الذهب » ١ / ٢١٧ .

(٣) « سيبويه » ١ / ٢١٧ ، ٢١٨ .

الحقيقة كما يقول الأعلم[١] .

٣- رأيُ الخليل في العوامل هو رأي النحاة عامة ، يقول سيبويه : « اعلم أن (حتى) تنصب على وجهين فأحدهما أن تجعل الدخول غاية لسيرك وذلك قولك : سرت حتى أدخلَها كأنك قلت : سرت إلى أن أدخلها ، فالناصب للفعل ههنا هو الجار في الاسم إذا كان غاية ، فالفعل إذا كان غاية منصوب ، والاسم إذا كان غاية جر ، وهذا قول الخليل »[٢] .

وهنا نلحظ القول بإضمار أن بعد حتى من جانب ، ودلالة النصب على الغاية في الفعل ، ودلالة الجر كذلك بعد أداة معينة .

وإذا ذهبنا نتتبع أقوال الخليل وآراءه في ارتباط الإعراب وعلاماته بالدلالة على وظائفه التي حددها له النحاة ما وجدنا الخليل بن أحمد يخرج عن إجماع النحاة ، غير أن ثمة نصًا أسيء فهمه أيضًا كما أُسيء فهم النّص الذي

---

(١) « تحصيل عين الذهب » ١ / ٢١٧ .

(٢) « سيبويه » ١ / ٤١٣ .

نحن بصدد بيانه ، وهو - كما ينقل سيبويه في المنادى - « وزعم الخليل أنهم نصبوا المضاف نحو يا عبد الله ، ويا أختاه ، والنكرة حين قالوا : يا رجلاً صالحًا حين طال الكلام ، كما نصبوا هو قبلك ، وهو بعدك ، ورفعوا المفرد كما رفعوا قبل وبعد وموضعهما واحد »[١] .

وليس في هذا النص شيء يخرج عن إجماع النحاة ، وفي إيجاز يقول الخليل : إن المنادى المضاف والنكرة المقصودة ينصبان في النداء كما تنصب قبل وبعد إذا قطعتا عن الإضافة لفظًا ، والتشبيه هنا منصب على حالة الإضافة وعدمها والنصب مع الإضافة والبناء مع نيتها فحسب ، وقد فهم بعض الباحثين أن الخليل يوضح عامل النصب في المنادى المضاف بقوله : « حين طال الكلام » ورتب على ذلك أمورًا كثيرة ، امتدح بسببها الخليل بأنه كان بعيدًا عن التمحل في تعليل النصب والرفع ، وبأنه

---

(١) « سيبويه » ١ / ٣٠٣ ويلاحظ هنا أنه قال : (ورفعوا) وهنا أشير إلى أن بعض البصريين يخلطون أحيانًا في مصطلحات الإعراب والبناء .

لهذا السبب كان مستوعبًا لأساليب العرب في كلامهم في شعرهم وخطبهم وأحاديثهم مستقرئًا ما يجرى للكلام في الاستعمال واعيًا للظواهر اللغوية والعوارض النحوية ، واستشف من هذه الإشارة منهج الخليل عامة بأنه « على هذا النحو كان الخليل يعالج مثل هذا الموضوع ، وهو نوع من المعالجة ينبغي الأخذ به في تفسير كثير من الظواهر النحوية أو العوارض التي تعرض للكلام في أثناء الاستعمال »[١] ، واتهم النحاة بأنهم لم يرقهم منهج الخليل ولا طريقته .

وعبارة الخليل هي - حتى تفهم على وجهها الصحيح - « نصبوا المضاف نحو يا عبد الله .. كما نصبوا هو قبلك وهو بعدك » وعبارة « حين طال الكلام » إنما هي تفسير للإضافة والتنوين .

وقد فسر الخليل هذا بنفسه بعد ، حين قال : « وقال الخليل : إذا أردت النكرة فوصفت أو لم تصف فهذه

(١) د. مهدي المخزومي « في النحو العربي نقد وتوجيه » : ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

منصوبة ؛ لأن التنوين لحقها فطالت ، فجعلت بمنزلة المضاف لما طال نصب »[١] .

وقد شرح سيبويه المقصود بتشبيه الخليل المنادى المضاف بقبل وبعد إذ يقول : « وإنما جعل الخليل المنادى بمنزلة قبل وبعد ، وشبهه بهما مفردين إذا كان مفردًا ، فإذا طال وأضيف شبهه بهما مضافين إذا كان مضافًا ؛ لأن المفرد في النداء في موضع نصب ، كما أن قبل وبعد قد يكونان في موضع نصب وجر ولفظهما مرفوع ، فإذا أضفتهما رددتهما إلى الأصل ، وكذلك نداء النكرة لما لحقها التنوين وطالت صارت بمنزلة المضاف »[٢] وليس بعد هذا بيان .

وجملة الأمر ، بعد فهم نص الخليل في موضعه من كتاب سيبويه وفهمه في ذاته ، وفهمه في فكر الخليل وآرائه ، أن الخليل بن أحمد يجري في نظرته للإعراب وعلاماته على رأي جمهور النحاة ، ونسبة القول بإنكار الإعراب إليه تهمة

(١) « سيبويه » ١ / ٣١١ .

(٢) « سيبويه » ١ / ٣١١ .

ظالمة جرها عليه تسرع بعض الباحثين في الحكم ، وعدم فقه النصوص ، والنظر فيها بغير ريث وأناة .

ويؤيد ما ذهبت إليه أن الزجاجي – وهو أظهر من تناول دلالة العلامات الإعرابية على المعاني – لم يشر إلى الخليل ، ولابد أنه قرأ النص الذي أوردناه ، ولابد أنه فهمه على الوجه الذي فهمته به ، وإلا ما قال بعد أن ذكر علة دخول الإعراب الكلام بأن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافًا إليها ، ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني ، بل كانت مشتركة جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني ، قال : « هذا قول جميع النحويين إلا قطربًا »[١] لم يستثن أحدًا من النحاة إلا محمد بن المستنير المعروف بقطرب ، ولو كان الخليل يقول بما قال به قطرب من بعد ، لما أغفله الزجاجي في هذا المقام .

❖ ❖ ❖ ❖

---

(١) « الإيضاح » : ٧٠ .

المبحث الثاني

بيان أثر العروض في ضبط التراث وتحقيقه

أهمية العروض في تحقيق التراث [1]

لا تخفى أهمية العروض في خدمة التراث وتحقيقه ، فلا يخلو كتاب تراثي من عدة أبيات من الشعر حتى كتب التاريخ والبلدان نجدها مليئة بمقطوعات وقصائد كثيرة قد لا توجد في دواوين الشعر المجموعة .

وتشتد الحاجة إلى معرفة العروض للمحقق الذي يعمل في تحقيق التراث العربي لضبط الأبيات التي تقابله في النص الذي يقوم بتحقيقه حتى يخرج النص سليمًا خاليا من التصحيف والتحريف .

---

(١) من محاضرة ألقيت على طلبة دبلوم المخطوطات وتحقيق التراث بمعهد البحوث والدراسات العربية .

التَّصحِيفُ العَرُوضِيّ

تعريفه :

هو أنْ يَبْدُو البيتَ مستقيمًا من حيث اللغة والنحو والمعنى ولكنه غير مستقيم من جهة العروض .

وهذا أمرٌ دقيق ؛ لأنه لا يمكن معرفتُه إلا لمن يعرف العروض .

ما الخطوات التي تُتبع في مثل هذا ؟

و للإجابة عن هذا السؤال عمليًّا لابد أن يراعِيَ المحققُ الأمورَ الآتية :

١ـ **مراجعة النُّسَخ** ، فقد يخطئُ ناسخٌ ولا يخطئُ ناسخٌ غيرُه .

٢ـ **معرفة الخطوط** ، مشرقِيِّها ومغربِيِّها .

٣ـ **معرفة عادات النُّسَّاخ** ، فهناك نُسَّاخ لهم عاداتٌ خاصَّةٌ في كتابتهم ، ليست منتشرةً بين جميع النُّسَّاخ .

٤ـ **معرفة اللغة** ، وخاصة الغريبَ منها .

٥ـ **معرفةُ السِّيَاق** ، سِياقِ المعنى ، سِياقِ الكلام ؛ لأنه

يحمل الحلَّ داخله ؛ لأن اللغةَ بها كلماتٌ تصاحبُ كلماتٍ أخرى .

فالسياقُ يشملُ المعرفةَ النحويَّةَ والمعنويَّة .

٦ـ **معرفة العروضِ معرفةً دقيقةً** ؛ لأن الذي لا يعرفُ العروضَ لا يفكِّرُ في هذا الأمر أيضًا . فأحيانًا بعضُ الأخطاء العروضية لا يترتب عليها أخطاءٌ في النحو .

* * * *

أمثلة للتطبيق

المثال الأول

كنتُ أقرأُ في « الشعر والشعراء »[1] لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، ووجدتُ فيه بيتًا لعَدِيّ بنِ زيدٍ العِبَادِيِّ يقولُ فيه :

والـرَّبْـرَبُ الْمَكْـفُــوفُ أَرْدَانُـهُ
يَمْشِي **رُوَيْدًا** كَمَشْيِ الرَّهِيصْ

والقصيدةُ من البحر السَّريع ، وقد ورد فيها بيتٌ عُدَّ مثلا ، وهو قولُه :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُبْطِئُ مِنْ حَظِّهِ
والخَيْرُ قَدْ يَسْبِقُ جُهْدَ الحَرِيصْ

يصفُ عديٌّ في البيت الأول السُّقَاةَ الذين يحملون أوانِيَ السقي ، ويَمُرُّ الربربُ ، وهو العددُ من السقاة ، أي جمعٌ منهم .

المكفوف : أي المشَمِّر .

---

(١) الشعر والشعراء : ٢٣١ ط دار المعارف سنة ١٩٦٦ م .

والأردان : جمع رُدْن ، وهو الكُمّ .

الرهيص : الدابةُ التي أصيبتْ في ظَلْفها فلا تستطيع المشي بسهولة .

وقد صُحِّفَتْ كلمة (رُوَيْدَاءَ) إلَى (رويدًا) .

والحل جاء عن طريق مراجعة المعاجم حيث ظننت الصواب : رُوَيْدَاءَ كما يقتضي وزن البيت من بحر السريع ولكنْ ليس في مخزوني اللغويِّ كلمةُ « رويداء » ، ومما يمهد العذر للعلامة المحقق أن البيت مستقيم في معناه وفي نحوه ، وأن النساخ قديمًا كانوا غالبا لا يكتبون الهمزة إذا كانت بعد ألف . ووجدتُ رويداءَ في « القاموس المحيط » ، فسجدتُ لله شكرا .

* * *

مثال آخر

ومن الأبيات التي وقع فيها تصحيفٌ عروضيٌّ قولُ عمرَ بنِ أبِي ربيعة :

عَلَى قَلُوصَيْنِ مِنْ رِكَابِهِمُ
وعَنْتَرِيسَيْنِ فِيهِمَا شَجَعُ
كَأَنَّمَا غَادَرَتْ كَلاكِلُهَا
والثَّفِنَاتُ الخِفَافُ إِذْ وَقَعُوا
مَوْقِعَ عِشْرِينَ مِنْ قَطًا زُمَرٍ
وَقَعْنَ خَمْسًا خَمْسًا مَعًا شِيَعُ

وقد وردت هذه الأبياتُ أيضا في « الشعر والشعراء »(١) ، ورجعتُ إلى « ديوان عمر بن أبِي ربيعة » فلم أجد هذه الأبيات .

والأبياتُ من البحر المنسرح ، يصفُ فيها الشاعرُ الإبلَ وآثارَ وقوعِها على الأرض ، كأنَّ هناك عشرين قطاةً وقعتْ ونهضتْ .

الكلاكل : الصدور .

(١) الشعر والشعراء : ٣٩٧ ط دار المعارف سنة ١٩٦٦ م .

والثفنات : الرُّكَب .

وقد صُحِّفَتْ كلمة (وَقَعْنَ) إِلَى (وَقَعَتْ) .

الحلُّ جاء عن طريق المعرفة النحوية ، فالضميرُ الذي يعود على الجمع غيرِ العاقل إما أن يكون بضمير المفرد المؤنثِ أو الجمعِ المؤنث (نونِ النسوةِ) .

ووارِدٌ أن يكون التصحيفُ بين : (وَقَعَتْ) و (وَقَعْنَ) والتاءُ أقربُ إِلَى الذهن من النون .

وبعد سنواتٍ قرأتُ في « المعاني الكبير » لابن قتيبة فوجدتُ فيه هذه الأبياتَ الثلاثةَ ، وقد جاءت الكلمةُ فيها سالمةً من التصحيف .

• • •

مثال آخر

ومن أمثلة التصحيف العروضي :

ما وقع فيه الدكتور أحمد عفيفي في تحقيقه لـ « شرح شفاء العلل في نظم الزحافات والعلل » لقاسم بن محمد البَكَرْجِي (ت ١١٦٩هـ) .

فقد ضبط المحققُ كلمة (كَرْب) في قول المصنف[١] :

وأَزْكَى صَلاةِ اللهِ ثُمَّ سَلامُهُ

عَلَى مَنْ بِهِ **كُرَب** الْمُصَلِّينَ **تَنْكَشِفْ**

فغيّر المحققُ كلمة (كَرْب) إلى (كُرَب) بضم الكافِ وفتحِ الراء فجعلها جمع (كُرْبة) .

وبهذا الضبطِ ينكسرُ الوزن !

فتحريكُ الراءِ يَكْسِرُ الوزنَ ، وجعل الياءَ في (ينكشف) تاءً (تنكشف) ؛ حتّى تُناسِبَ الضبطَ الذي اختاره لـ (كَرْب) ، وعَلَّق عليها في الهامش قائلا[٢] :

(١) ص (٩٠) .

(٢) ص (٩١) .

« في المخطوط (ينكشف) وهو تصحيف !! » .

والحقُّ أن المحقق هو الذي صَحَّفَ الكلمة ، فالذي ظَنَّه تصحيفًا هو الصَّواب ، والعجيبُ أنه شاعر!!

والبيتُ من البحر الطويل ، وهو من منظومة للبكرجي شرحها هو بنفسه .

وصواب الشطر الثاني هو :

على من به كَرْب المصلّين ينكشفْ

* * *

الخاتمة

لعلك رأيت معي من خلال الصفحات السابقة جانبا يسيرًا من جوانب النصوص التي قَاد عدم الصبر عليها ، وفقدان السبر لها إلى فهم هي منه براء . وليس هذا إلا مثالا واحدا في مجال واحد .

وهناك عشرات من الأمثلة في هذا المجال نفسه ، وهناك عشرات من الأمثلة في مجالات أخرى متعددة . ولم يكن الغرض الاستقصاء لأن هذا غير ممكن من فرد واحد بل من أفراد .

ولكن كان الهدف هو الدعوة إلى الحذر والتأني أمام فقه النصوص أو قراءتها . ولعلها دعوة تثمر ثمرتها وتؤتى أكلَها بإذن ربها . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعا إلى سواء السبيل .

المصادر والمراجع

١ـ إبراهيم أنيس :

ـ من أسرار اللغة (مكتبة نهضة مصر د . ت) .

٢ـ إبراهيم السامرائي :

ـ التطور اللغوي التاريخي (معهد الدراسات العربية)

ـ دراسات في اللغة (بغداد ١٩٦١ م) .

الفعل زمانه وأبنيته . (بغداد ١٩٩٦ م) .

٣ـ أحمد عبد العظيم

ـ الوحدات الصرفية ودورها في بناء الكلمة ـ رسالة ماجستير دار العلوم ١٩٧٠م .

٤ـ الأعلم الشنتمرى :

ـ تحصيل عين الذهب (بأسفل كتاب سيبويه ط بولاق) .

٥ـ الزجاجي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق :

ـ الإيضاح في علل النحو (تحقيق مازن المبارك دار العروبة بمصر ١٩٥٩) .

٦ـ أبو سعيد السيرافى :

ـ تقريرات السيرافى بهامش الكتاب لسيبوية ط بولاق .

٧ـ سيبويه أبو بشر عمرو بن قنبر :

ـ الكتاب (المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٧٠ هـ)

٨ـ عبد الرحمن السيد :

ـ مدرسة البصرة النحوية (١٩٨٦ مصر)

٩ـ ابن قتيبة :

ـ الشعر والشعراء دار المعارف ١٩٦ .

١٠ـ قاسم بن محمد البكرجى :

ـ شفاء العلل في نظم الزحافات والعلل . تحقيق د . أحمد عفيفي (القاهرة) .

١١ـ مهدي المخزومي :

ـ في النقد العربي نقد وتوجيه (بيروت ١٩٦٤)

تم الكتاب بحمد الله